## الفصل الثانى والعشرون

# الدراسات الإنسانية الأرسطية وفن التأريخ فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد

**الأيكولوجيا ECOLOGY أو علم أثر البيئة :**

كان أرسطو عالماً أولا ، ينظر إلى كل شىء من جانبه المعقول ؛ ولكنه كان أيضاً فيلسوفاً ، بل فيلسوفاً ميتافيزيقياً ، وكان له شغف عظيم بالدراسات الإنسانية كلها . ولذا يجدر بنا – تمشياً مع روح تفكيره – أن نعرض نظرياته السياسية والاجتماعية ، مراعين فى ذلك اعتبارات البيئة (الأيكولوجية ).

ولكن ما علم أثر البيئة Ecology ؟ إن لفظة « أيكولوجيا » يونانية بالطبع ، ولكنها ليست من الألفاظ اليونانية القديمة . وقد ظهرت فى اللغة الإنجليزية أول ما ظهرت بالصورة الآتية oecology (وهذا أضبط ). وأول ما وردت الكلمة على هذه الصورة فى معجم أكسفورد للغة الإنجليزية ، ويرجع تاريخ استعمالها إلى سنة ١٨٧٣ ( هيكل Haeckel ) . أما الصورة الثانية – وهى ecology * فأقدم ذكر لها فى ملحق المعجم المذكور ، ويرجع استعماله إلى سنة ١٨٩١ [١] . وقد عرفت « الأيكولوجيا » فى معجم أكسفورد بأنها « علم الاقتصاد الحيوانى والنباتى : أو بأنها فرع من فروع علم الحياة يبحث فى العلاقات بين الكائنات الحية والبيئة التى تعيش فيها ، كما يبحث فى عادات هذه الكائنات وأساليب حياتها وما أشبه ذلك » . وكلمة أيكولوجيا حديثة جداً ، ولكن « علم الأيكولوجيا » قديم ، بل هو قديم قدم أرسطو . وكل عالم طبيعى على حظ من الذكاء قد بحث وقتاً ما بعض المسائل الأيكولوجية من غير أن يكون له علم

---

* يبحث المؤلف كلمة أيكولوجيا فى اللغتين اليونانية والإنجليزية ، ويشرح الفرق بين هجاء الكلمة فى كل منهما . ولاقيمة لمثل هذا البحث لقارئ اللغة العربية – ( المترجم ) –

بذلك، كالسيد البرجوازى فى رواية «موليير» الذى كان يستعمل « النثر » من غير أن يدرى أنه يفعل ذلك. بل مما لاشك فيه أن الأذكياء من الزراع والقناصين وصيادى الأسماك قد لاحظوا ، قبل أرسطو ، بعض الظواهر المتصلة بالبيئة ؛ ولكن أرسطو كان أول من كتب عن هذه الظواهر ، وبذلك أدخل البحوث البيئية فى الدراسات العلمية .

ولأذكر الآن مثالين : الأول مثال الپنا Pinna [٢] .

والپنا[٣] نوع من الحيوان الرخو ذى الصدفتين يوفر له أسباب الحياة سرطان صغير يعيش معه فى فتحة محارته ويعينه على تحصيل غذائه ؛ ويسمى هذا السرطان الصغير pinoteres أو pinophylax ومعناه « الوصى على الپنا » . يقول أرسطو « إن الپنا إذا حرمت الوصى عليها سارع إليها الفناء ».

ومن المحتمل جداً أن الصيادين لاحظوا هذه الظاهرة الغريبة من ظواهر المضايقة أو الشركة فى المعيشة ، قبل أن يلاحظها أرسطو بزمن طويل ، وأن كلمة « پنوتيريس » أو « پنوفيلاكس» كلمة عادية أكثر منها اصطلاحاً علمياً . بل إن مما يدل على أن هذه المسألة كانت معروفة عند جمهور الناس أنهم أطلقوا كلمة « پينوتيريس » على الرجل الطفيلى . والأرجح أن أول من أطلق هذه التسمية العجيبة على الرجل المداهن لم يجدها فى كتاب أرسطو عن الحيوان ، وإنما وجدها فى اللغة الحية التى يستعملها الناس .

والمثال الثانى أعجب من هذا ؛ وقد ورد عنه نص سأقتبسه برمته وإن كان الجزء الأخير منه لا يمت بصلة إلى موضوعنا . وهو مثال طيب يوضح طريقة أرسطو فى وصف الحيوان . أما البحث الذى يعقب النص فمقصور على مشكلة السكان التى كان أرسطو أول من أثارها . يقول أرسطو :

« إن ظواهر التولد عند الفيران فى غاية العجب ، من حيث عدد الصغار المولودة وسرعة تكرار الولادة . فقد حدث ذات مرة أن فأرة حبلى حبست مصادفة فى جرة مملوءة حباً ، ولما رفع عن الجرة غطاؤها بعد فترة قصيرة من الزمن ، وجد ما يربو على مائة وعشرين فأرة .

وسرعة توالد الجرذان فى البلاد الريفية وما تحدثه من تلف من الأمور التى تجاوز الوصف ؛ فإنها قد تكون فى بعض القرى من الكثرة بحيث تأتى على كل المحصولات ولا تدع منها للفلاح إلا قليلا . وهى من السرعة فى تصرفها بحيث إن الفلاح الصغير قد يعقد العزم على حصاد محصوله الذى آذن بالحصاد، فإذا ذهب من غده إلى حقله ومعه آلات الحصاد وجد محصوله قد التهم التهاما. بل إن اختفاءها ( بعد ظهورها ) أمر لا يستطاع تفسيره أيضاً ؛ فإنها فى أيام قلائل تختفى فلا ترى منها فأراً واحداً ، وكانت قبل ذلك من الكثرة بحيث أعجزت حيل من يحاربونها بأن يطلقوا عليها الدخان أو يقلبوا عليها الأرض أو يصطادوها حيثما وجدت ، أو يطلقوا عليها الخنازير ، فإن الخنازير تهدم مسارب الفيران بأن تنبشها بأنوفها . والثعالب أيضاً تصطادها ، وبنات عرس بوجه خاص تبيدها . ولكن هذه كلها لاتؤثر فى مقاومة خصائص الإنتاج فى هذا الحيوان ، أو فى سرعة توالده . ولا ينجح فى خفض عددها عندما تكثر كثرة فاحشة سوى المطر ، فإنها تختفى سريعاً عقب المطر الغزير . وفى بعض نواحى بلاد فارس دل تشريح الفأرة الأنثى أن أجنتها الإناث حبلى . وقد ادعى بعض الناس — وأصروا على دعواهم — أن إناث الفئران تحبل إذا لعقت الملح وبدون أن يباشرها ذكر !

والفئران فى مصر مغطاة بالهلب كالقنافذ . ومن الفئران أيضاً صنف مختلف يمشى على رجليه الخلفيتين الطويلتين ورجلاه الأماميتان قصيرتان[٤]. وهذا الصنف كثير الانتشار جداً . وللفئران أصناف أخرى غير التى ذكرناها هنا »[٥].

هكذا لاحظ أرسطو ، فى دقة، التزايد السريع المفاجئ فى عدد أفراد نوع من أنواع الحيوان ، ذلك التزايد الذى يعقبه نقص ظاهر أو اختفاء تام . ويعلق كاتب حديث بحث هذا الموضوع بقوله :

« إن الوصف الدقيق المتزن الذى وصف به أرسطو تزايد عدد الفئران ونقصانه يمكن أن نتخذه مادة أساسية فى كتابنا هذا ، فإنه يحتوى معظم

العناصر التى تتألف منها مشكلة الذبذبة الطبيعية للسكان[٦] ».

ولاغرابة فى أن أرسطو لم يصل إلى أعماق هذه المشكلة لأنها بعيدة الغور حقاً ، ولم يكشف عن الجانب الجوهرى فيها إلا فى عصرنا ( ١٩٢٥–١٩٣٥ ) يقول إلتون :

« إن الفكرة العامة ، وهى أن الجماعات الحيوانية لها بفضل تكوينها وتنظيمها القدرة على إحداث التذبذب العددى ، لم يبحثها أى باحث ( عدا سبنسر ) بحثاً صريحاً حتى سنة ١٩٢٥ : فإن لوتكا Lotka ، الرياضى الأمريكى المتخصص فى « ديناميكية » السكان ، قد نشر فى هذه السنة تحليله الرائع للعالم بوصفة نظاماً أيكولوجيا ecosystem ؛ وحوالى هذا التاريخ وصل فولترا Volterra الرياضى الذى يقوم بأبحاثه فى إيطاليا إلى نتائج قريبة الشبه ( من تلك التى وصل إليها لوتكا ) فى موضوع ذبذبة السكان .

والفرق الكبير بين نظريتيهما ونظريات الأيكولوجيين ( علماء البيئة ) أمثالى يتلخص فى أننى كنت أعتقد أن المؤثرات الخارجية . كالمناخ ، هى القوى الأولى التى يحدث عنها تذبذب السكان ، وأن العوامل الأخرى كالأوبئة والتقلبات السكانية السابقة لأوانها ، ليست سوى نتائج ثانوية . أما لوتكا وفولترا فيعتقدان أن فى إمكانهما أن يثبتا بأدلة رياضية قاطعة أن جماعات الحيوان التى تنتمى إلى أنواع متصلة أيكولوجياً ، لابد أن تتذبذب تذبذباً عددياً بحيث يصبح المناخ والمؤثرات الخارجية الأخرى عوامل لاتفعل أكثر من أن تعوق التذبذب الطبيعى ، وبذلك تفضى إلى نتائج معقدة غاية التعقيد . وليس من شك فى أن النتائج التى وصل إليها هذان الباحثان صادقة فى جملتها ، ولكن العجيب هو أن تتوارد الخواطر فى مثل هذه النظرية الهامة بين باحثين رياضيين قام كل منهما ببحثه مستقلا عن الآخر وفرقت بينهما أربعة آلاف من الأميال ، أحدهما يقوم بمهمة رسمية فى الإحصاءات الحيوية للسكان

والآخر رياضى بحث لا تتصل بحوثه بعلم الحياة ( البيولوجيا ) اتصالا مباشراً على الإطلاق »[٧].

لقد أبعدتنا هذه الفقرة كثيراً عن أرسطو ، ولكنها وضحت التجاوب العجيب بين الأفكار فى حل المسائل العلمية الخالصة ، أما التفسيرات الخرافية فتدور فى حلقة مفرغة ولاتفضى فى النهاية إلى شئ . ولذلك كانت الأسئلة العلمية التى أثارها رجال من أمثال أرسطو وثيوفراستوس منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً من المسائل التى لا تزال تشغل عقول العلماء وتمدها بالخصب الفكرى حتى اليوم .

## الأخلاق :

كان أرسطو الواضع الأول لعلم الأخلاق ، كما كان الواضع الأول للمنطق ولكثير من فروع العلوم الطبيعية . وتعتبر كتب الأخلاق المنسوبة إليه أقدم مؤلفات نظرية من نوعها[٨]. وتحوى مؤلفات أرسطو أربعة كتب فى الأخلاق[٩] أولها وأكبرها الأخلاق النيقوماخية وهذا نكاد نوقن بصحة نسبته إلى أرسطو. أما الثلاثة الأخرى وهى : الأخلاق الأوديمية ، وهى صورة مختصرة لمسائل الكتاب الأول ، ويغلب على الظن أنها لمؤلف آخر[١٠]. والأخلاق الكبرى Magna moralia ، وهى رسالة متأخرة مستمد بعض أجزائها من الكتابين المتقدمين ثم رسالة قصيرة فى الفضائل والرذائل ، فإنها أكثر تأخراً فى الزمن من كل ما تقدم . والكتاب الأول يزيد فى حجمه عن الكتب الأخرى مجتمعة[١١].

وفى « الأخلاق النيقوماخية » الكفاية لكل من يريد أن يدرس علم الأخلاق عند أرسطو ، لاسيما إذا كان غرضه معرفة الأجزاء التى ابتكرها أرسطو فى هذا العلم. أما إذا أراد أن يتعمق فى دراسة الأخلاق عند المشائين ، فإنه من الضرورى أن ينظر كذلك فى « الأخلاق الأوديمية » و « الأخلاق الكبرى » ويبحث ما هنالك من صلات بين هذه الكتب الثلاثة ، على نحو ما يوجد من الصلات بين ثلاثة الأناجيل المتشابهة .

وقد سميت « الأخلاق النيقوماخية » بهذا الاسم لأن أرسطو أهداها إلى نيقوماخوس الذى يحتمل أنه كان ابنه من زوجته الثانية إبلليس من ستاجيرا . على أنه قد قيل أيضاً إن أرسطو لم يكتب الكتاب لابنه وإنما كتبه لأبيه . وهناك نظرية ثالثة تقول إن الكتاب يحمل اسم نيقوماخوس الابن — لا من جهة أنه مهدى إليه ، بل من جهة أن الابن كان ناشراً له . والفرض الأول أرجح الفروض وأكثرها قبولا فى نظر الباحثين اليوم .

وغرض أرسطو من الكتاب هو الكشف عن النوع الأكمل والأفضل من أنواع السلوك الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان فى حياته ، أو بعبارة أخرى هو تحديد الخير الإنسانى الأعلى الذى يلزم الإنسان نفسه بالسعى إلى تحقيقه بمجرد أن يحدده . أما الخير الأعلى فهو أن يحقق الإنسان فى نفسه معنى الإنسانية ، أو أن يحصل الفضائل التى فى وسع النفس الإنسانية أن تحصلها ، أو يصل بذلك إلى السعادة الحقة ، لا السعادة كما يفهمها عامة الناس .

وتعين الخيرات الخارجية على تحقيق السعادة ، ولكنها ليست منها فى الصميم ؛ والفضيلة شىء محمود ، أما السعادة فشىء يجاوز هذا الوصف . وتنقسم الفضائل إلى قسمين كبيرين ، الفضائل الأخلاقية ( كالشجاعة والعفة والكرم والعدالة ) ، والفضائل العقلية ( الحكمة والتأمل فى الحقيقة ) . وأعلى أنواع الخير على الإطلاق نجده فى حياة التأمل .

وتنقسم «الأخلاق النيقوماخية» إلى عشر مقالات : المقالة الأولى فى الخير الإنسانى ؛ والمقالات ٢ — ٥ فى الفضائل الأخلاقية ؛ والمقالة السادسة فى الفضيلة العقلية ؛ والسابعة فى العفة والشهوة واللذة . والمقالتان الثامنة والتاسعة فى الصداقة ؛ والمقالة العاشرة فى اللذة والسعادة .

ويبين أرسطو أن الفضيلة ليست أمراً فطرياً موروثاً ، ولا هى وليدة المعرفة (كما كان يزعم أفلاطون) وإنما هى عادة ( أو ملكة ) من عادات النفس يمكن اكتسابها والوصول بها إلى درجة الكمال . وأكمل العادات على الإطلاق فعل النفس الناطقة التى هى الجانب الإلهى من نفوسنا ، ونمو الجانب الإلهى فينا

يقربنا من الله . والأخلاق النيقوماخية ليست أقدم مؤلف فى الأخلاق فحسب ، بل هى أقدم مؤلف فى الفلسفة الخلقية على الإطلاق ، ولم يظهر بعدهامايفضلها فى كثير من المسائل التى عالجتها . ونحن لانملك إلا أن نغبط تلاميذ أرسطو ومن استمعوا له فى الليكيوم على أن أتيحت لهم فرصة الاستماع إلى هذه البحوث الرفيعة ، وهى بحوث تمتاز باتزانها واعتدالها ، ولا يظهر فيها الانفعال الوجدانى إلا قليلا .

أما « الأخلاق الأوديمية » فقد فسرت تسميتها بالطريقة التى فسرت بها الأخلاق النيقوماخية ، وأحاط بها الغموض عينه الذى أحاط بأختها : فقد أطلق عليها اسم « الأخلاق الأوديمية » إما لأن أرسطو أهداها إلى أوديموس ، أو لأن أوديموس هذا كتبها بالفعل ، أو لأنه نشرها . وفى كلتا الحالتين يظل المصدر واحداً ، وهو أرسطو . وليس من شك فى هذا لكثرة ما نراه من وجوه الشبه بين « الأخلاق الأوديمية » و «الأخلاق النيقوماخية » .

أما عن هوية أوديموس فلا نملك إلا أن نقول إنه أوديموس الرياضى الرودسى أحد تلاميذ أرسطو المقربين ، وكان محتملا أن يخلفه فى رياسة الليكيوم . نعم إن ثيوفراستوس اختير آخر الأمر لرياسة الليكيوم ، لا لأنه كان أكثر من أوديموس إخلاصاً لأرسطو بل لأنه كان أرق منه خلقاً . وأرسطو ، بعيد النظر فى شتى الأمور . كان يدرك أنه يجب أن تتوافر فى رئيس الليكيوم صفات كثيرة ربما لا تكون الصفات العقلية الممتازة وحدها أهمها . ولكن إلى أى حد قدر أرسطو الصفات الوجدانية فى مقابل العقلية ، والقلب فى مقابل المخ[١٢]؟ هذا سؤال تستحيل الإجابة عنه ، كما تستحيل الإجابة عما إذا كان مهندس البارثينون رجلا طيب القلب أو رحيما وكريماً !

أما كتاب «الأخلاق الكبرى » فلم تثبت نسبته إلى أرسطو ثبوتاً قاطعاً ، ولو ثبتت لاسترحنا وهو قريب فى حجمه من الأخلاق الأوديمية ( ٦٦ — ٧٢ عموداً ) وهو تلخيص للكتابين الآخرين « الأخلاق النيقوماخية » و «الأخلاق الأوديمية »مع إضافة جديدة غريبة : أعنى قوله :

وعلى الجملة فليس الأمر كما يظنه سائر الناس من أن العقل هو مبدأ الفضيلة والهادى إليها، وإنما ذلك هو الوجدان؛ فإن من الضرورى أن نشعر أولا (كما هو الواقع) بدافع لاعقلى يدفعنا إلى الصواب، ثم نضع الأمر بعد ذلك أمام العقل ليقضى فيه ويقره[١٣].

وهناك فقرة أخرى من «الأخلاق الكبرى» لها دلالتها وأهميتها أيضاً، وهى:

من الواجب أن نتحدث عن النفس التى تقوم بها الفضيلة، لا عن ماهية النفس. (فإن الحديث عن ماهية النفس موضوع آخر). ويجب أن نقسمها تقسيما إجمالياً. إنها تنقسم إلى قسمين: عاقلة وغير عاقلة؛ فالنفس العاقلة هى موطن الحكمة والذكاء والتفلسف والقدرة على التعلم والتذكر وما إلى ذلك؛ والنفس غير العاقلة هى موطن الصفات التى نطلق عليها اسم الفضائل كالاعتدال والشجاعة وأمثال ذلك من الأحوال الخلقية التى توصف بأنها محمودة؛ وبفضلها نوصف نحن بالسيرة الحميدة، ولا نوصف بهذا الوصف من أجل فضائل النفس العاقلة. فلا يمتدح أحدنا لأنه فيلسوف أو حكيم أو أى شئ من هذا القبيل، كما أن الجزء غير الناطق فى النفس لا يوصف بأنه محمود إلا من حيث صلاحيته للخضوع للجزء الناطق فيها، أو من حيث خضوعه بالفعل له[١٤].

وقد جمع مؤلف «الأخلاق الكبرى» (سواء أكان أرسطو أم شخصا آخر لم يزد على أن ردد أقوال أرسطو!) بين التعقل والوجدان، ولم يفقد بذلك التوازن العقلى فى كتابه. والوجدان لا ينفصل عن العقل أبداً فى الطبيعة الإنسانية، ولذا كان من صميم الحكمة ألا يفصل الإنسان بينهما فى فلسفته.

**السياسة :**

الانتقال من علم الأخلاق إلى علم السياسة أمر طبيعى ، لأنهما يبحثان فى ميدان واحد، وإن كانت عناية الأخلاق بدراسة الفرد أكثر . ويبحث علم السياسة فى خير الجماعة برمتها ، فى حين يبحث علم الأخلاق فى خير الفرد . ولكن خير الجماعة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بخير الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة ، بحيث يستحيل فصل أحد الخيرين عن الآخر . بل إنه يستحيل وضع حد فاصل بين الاثنين فى كثير من الأحيان ، إذ هما وجهان لشئ واحد : إذا نظرنا إليه من جانب كانت نظرتنا أخلاقية ، وإذا نظرنا إليه من الجانب الآخر كانت سياسية .

«والاقتصاد» على بعض الاعتبارات ، مرحلة انتقال بين «الأخلاق» و «السياسة» ، ولكن الكتاب الذى يحمل هذا الاسم ( الاقتصاد ) فى مجموعة مؤلفات أرسطو [١٥] كتاب منحول ما فى ذلك شك ، وفيه بابان أو ثلاثة : الأول مأخوذ من أرسطو وكسينوفون ، وربما كان من نتاج أواخر القرن الذى عاشا فيه . أما الباب الثانى فالأرجح أن مؤلفه يونانى من رجال العصر الهلينى عاش فى مصر أو فى آسيا ؛ وفيه ينقسم الاقتصاد إلى أربعة أنواع ( الاقتصاد الخاص بالملك والاقتصاد الخاص بالولاة ، والاقتصاد السياسى ، والاقتصاد الفردى ) . وتعالج مسائل هذا الميدان الغريب بطريقة مهوشة تعتمد على القصص. وأما الباب الثالث — وهو لم يصل إلينا إلا فى ترجمة لاتينية — فيكاد ينحصر موضوعه فى الزوجة ومركزها وواجباتها ، وهو أبعد ما يكون عن المصادر الأرسطية [١٦]. وقد يكون من المبالغة أن نقول إن الأساس الذى استند إليه أرسطو فى علم السياسة أساس بيولوجى بحت . وإن كانت بعض الاعتبارات البيولوجية قد وجهت تفكيره السياسى من غير شك : فإنه عندما بحث الأنواع المتعددة للحكومات قارنها بالأنواع المختلفة للحيوان . إذ كل حيوان يتألف من أعضاء ، ومن الأعضاء

المختلفة ؛ أو من مجموعات الأعضاء المختلفة ، تتكون أنواع الحيوان المختلفة . وبالطريقة عينها تتألف أية جماعة من أنواع مختلفة من الناس ، يسخر بعضهم بعضاً ، بأن يؤدى كل منهم عمله ويقوم بوظيفته فى المجتمع ؛ كأن يكون زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو جندياً أو قاضياً أو مستشاراً فى الرأى ؛ هذا فضلا عن اختلافهم فى الغنى والفقر ؛ فإن بعضهم غنى وأكثرهم فقراء . أما النتيجةالنهائية لمثل هذه الظروف فلا يمكن تحديدها(١٧) .

ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نفصل أرسطو السياسى عن أرسطو الفسيولوجى أو البيولوجى . وينطبق هذا الكلام نفسه على أرسطو الفيلسوف ؛ يدلنا على ذلك أنه يبدأ كتابه فى ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا ) بمقارنات من علم الحيوان .

ولم يكن أرسطو أول من قارن الدولة بالكائن الحى ، والجماعة السياسية بجسم الفرد وحسب ، بل إنه اتبع فى بحوثه السياسية المنهج عينه الذى اتبعه فى دراسة التاريخ الطبيعى . فكما قارن الأنواع المختلفة للأسماك لكى يصل إلى علم دقيق بماهية السمك ، كذلك درس النظم الدستورية فى نحو مائتين من المدن اليونانية دراسة مقارنة . ومما يؤسف له أنه لم يصل إلينا إلا واحد من هذه التواريخ الدستورية ، وإن شاءت الظروف أن يكون أهمها(١٨) . على أن أرسطو لم يقنع بوصف دستور أثينا على ما كان عليه فى زمنه ، بل وضع إلى جانب هذا الوصف دراسة عن تطور الحكم فى أثينا من أول أمرها إلى عهده ؛ لأنه رأى أننا ، لكى نقف على علم دقيق بحاضر كائن من الكائنات ، يجب أن نعلم شيئاً عن تطوره فى ماضيه . وهكذا فعل أرسطو فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد ما فعله هربرت سبنسر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر؛ بل إن كتاب علم الاجتماع الوصفى Descriptive Sociology لهربرت سبنسر — على الرغم مما فيه من تحليل مستفيض منظم — ليس فى جملته بأفضل من كتاب دستور أثينا .

وقد أدرك أرسطو إدراكاً تاماً ما للتاريخ السياسى من قيمة فى دراسة النظم

الاجتماعية الفردية ، ولذا كتب المقالة الثانية من كتاب « السياسة » برمتها فى وصف الجماعات السياسية القائمة بالفعل ، إلى جانب وصفه للمدن الفاضلة كما تصورها كل من أفلاطون وفالياس من أهل خلقدونيا[١٩] ، وهيوداموس من أهل ميليتوس .

ولكنه قبل عرضه يشرح المبادئ الأساسية التى تقوم عليها الحكومة أيا كانت ، وهذا أمر يمكن الوصول إليه من غير رجوع إلى الماضى ؛ ولذا وضع المقالة الأولى من كتاب السياسة فى تعريف الدولة وتكوينها ، وقال : « إن الدولة مخلوق طبيعى ، والإنسان بطبعه كائن اجتماعى »[٢٠]. وللتركيب الاجتماعى درجات مختلفة : الأسرة والقرية ثم المدينة ( أى المدينة اليونانية hé polis ، وهى إلى حد ما يمكن مقارنتها بالدولة فى العرف الحديث ). أما الروابط الأساسية التى بفضلها يرتبط أفراد المدينة فهى الروابط التى تربط المولى بالعبد والزوج بالزوجة والأب بأبنائه[٢١]. وينبغى أن ننظر فى هذه الروابط وما يترتب عليها قبل أن نحاول فهم نظام الدولة برمتها .

وكما أننا لخصنا ما فى المقالتين الأوليين من كتاب السياسة ، سنحاول الآن أن نتم هذا التلخيص بتحليل سريع لما فى المقالات الأخرى .

فى المقالة الثالثة الموضوعات الآتية : المواطن ، الفضيلة المدنية ، الجماعة المدنية ، تصنيف النظم السياسية : الديمقراطية والأوليجركية والملكية . أنواع الحكومة الملكية . وفى المقالة الرابعة[٢٢] التنوع فى النظم الدستورية الرئيسية ، المدينة الفاضلة ( المثلى ) بوجه عام وفى ظروف خاصة ، كيفية الشروع فى وضع نظام سياسى ( الوظائف الآتية : أعمال الدولة أو الشورى ، الأعمال التنفيذية ، الأعمال القضائية ) .المقالة الخامسة : وتبحث فى الثورات وأسبابها العامة ، الثورات فى دول خاصة وكيف يمكن تلافيها . المقالة السادسة : وتبحث فى تأليف الحكومات الديمقراطية والأوليجركية المقالة السابعة : وتبحث فى الخير الأعلى للفرد والدولة ، صورة من صور المدينة المثالية ، نظام التربية فى المدينة المثالية ، الغاية فى التربية وأدوارها الأولى .

المقالة الثامنة : وهى تتمة البحث فى النظام المثالى للتربية، مع ذكر شىء عن الموسيقى والألعاب الرياضية .

وقد عرض أرسطو فى هذه المقالات لكثير من المسائل يضيق المقام عن ذكرها جميعاً . ولعل أفضل مثال لتفكير أرسطو السياسى هو ما ورد فى المقالة الخامسة مما يصح أن نسميه بالتاريخ الطبيعى للثورات . سأل أرسطو نفسه عن أسباب الثورات ، ومشخصاتها ، وطرق علاجها ، بالمنهج الذى يتبعه الطبيب فى تشخيص مرض من الأمراض ثم علاجه . تساءل أرسطو لماذا تحدث الثورات ؟ فكان الجواب أن السبب هو انعدام المساواة الاجتماعية ، والتضارب بين وجهات النظر السياسية والعواطف الجامحة . ولكن ينبغى أن يميز الإنسان بين الأسباب التى قد تكون مزمنة متغلغلة فى تاريخ الأمة ، وبين الأحداث العارضة المثيرة التى تحدث الثورة كما يحدث قدح الزند النار . ثم يتساءل أرسطو : كيف يمكن الحيلولة دون وقوع هذه الكوارث ؟ ويجيب بأننا يجب أن نتحاشى الظلم والخيانة فى معاملة الشعب ، ونعمل على إيجاد التعاطف بين الحكام والمحكومين ، ونراقب العوامل الهدامة فى كيان المجتمع بعين ساهرة ، ونعدل بين وقت وآخر شروط الملكية ، ولا نسمح لفرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات بطغيان النفوذ ، وأن نقاوم فساد الحكام ونصطنع الاعتدال فى كل شئ . وإن من يقرأ المقالة برمتها[٢٣] ليعجب من استقصاء تفكير أرسطو وشموله كما يعجب بمسايرته للتفكير الحديث ؛ بل إن كتاب السياسة ليصلح اليوم أن يكون مرجعاً لكل من يدرس نظم الحكم والإدارة .

والمقالتان الأخيرتان غير كاملتين ؛ ويشرح فيهما أرسطو الجمهورية المثالية ويصفها ؛ وهما يذكراننا بأفلاطون الذى يكثر أرسطو من الإشارة إليه وينقده . ولكن شتان بين النغمة التحكمية عند أفلاطون ، والمنهج العقلى الهادئ عند أرسطو ! وليس معنى هذا أن أرسطو لم يكن فى وقت من الأوقات متعصباً لرأيه ، أو أن تفكيره خلا من الخرافات ، فقد كانت له عيوب ككل عظيم

من عظماء المفكرين . ولكن الذى يجب أن نلاحظه هو أن عيوب أرسطو ، كعيوب غيره من الناس دائماً ، ترجع إلى ظروفه الاجتماعية إلى حد كبير ؛ فإن الإنسان مهما بلغ من العظمة والقدرة على الابتكار لا يستطيع التغلب على القيود التى يفرضها عليه الزمان والمكان اللذان يعيش فيهما .

فمن القيود التى حدت من نظر أرسطو ما يرجع إلى صغر الدولة فى النظام اليونانى ؛ فإن الدولة بلغت من الصغر أنها انحصرت فى المدينة وضواحيها ولذلك كان الحكم الديموقراطى الذى أمكنه أن يفكر فيه — فى أفضل أحواله — شبيهاً بالاجتماعات التى تعقدها مدينة من مدن نيوانجلند أو المقاطعات cantons السويسرية ؛ فلم يكن أرسطو بحاجة إلى التفكير فى السلطة النيابية ، ولا إلى مناقشة المشاكل الشائكة المتصلة بنظام الحكم النيابى .

وأسوأ ما يؤخذ على أرسطو ما يتصل بنظام الرق . وقد اعتبره أمراً طبيعياً . استمع إليه حيث يقول :

> وقد وضح إذن أن بعض الناس أحرار بطبيعتهم وأن بعضهم أرقاء بطبيعتهم وأن الرق حق على هؤلاء وهم أهل له(٢٤) .
>
> بل يجب التسليم بأن بعض الناس أرقاء أينما حلوا ، وأن بعضهم أحرار فى كل مكان ، ومثل هذا يقال فى شرف المحتد : فالهلينيون يعتبرون أنفسهم أشرافاً لا فى موطنهم وحسب ، بل فى كل مكان ، فى حين أنهم يعتبرون البرابرة شرفاء فى مواطنهم فقط ، وبذلك يفرقون بين نوعين من الشرف والحرية : أحدهما مطلق والآخر نسبى (٢٥) .

وقد كان أرسطو مؤمناً كل الإيمان بهذه الأفكار بدليل أنه أجاز إعلان نوع من الحرب يصح أن يطلق عليها أسلافنا اسم « حرب المستعمرات » . يقول :

> « إذا لم يكن فى الطبيعة عمل ناقص أو عبث ، فمن الضرورى أن نستنتج أن الحيوان خلق من أجل الإنسان . ولذا كانت الحرب بمعنى من معانيها فناً من الفنون الطبيعية غايته التملك ، لأن من أساليب التملك الصيد والقنص ، وهو فن يجب أن نمارسه ضد الحيوانات

obeikandi.com

الوحشية وضد الناس الذين قضت الطبيعة بأن يخضعوا لغيرهم ولكنهم لم يخضعوا . ذلك لأن حرباً من هذا القبيل لاشك حرب عادلة[٢٦]».

نعم : هذه هى الشناعة بعينها ! ولكن هل خلا تفكيرنا اليوم فى الحرب والسلم عن كل عيب حتى نحل لأنفسنا أن ننكر على غيرنا تفكيرهم ؟

ليس من الضرورى بعد هذا أن نناقش رأى أرسطو فى السلم والحرب بأكثر مما فعلنا . فإن تشبيهه الحرب بالصيد والقنص قد أفسد عليه التفكير منذ البداية ، ولأول مرة أضله التفكير البيولوجى ضلالا بعيداً . ولكن يجب أن نتذكر كم من القرون مضت ، وكم من أهوال وجرائم للحرب ارتكبت ، قبل أن يفكر الناس فى مقاومة الحرب وما فيها من ظلم ووحشية . ثم قبل أن ينادوا بالقضاء عليها. بل يجب أن نتذكر أيضاً أن فيلسوفاً ممتازاً كالفيلسوف ديكارت ، الذى عاش بعد أرسطو بنحو عشرين قرناً ، قد رأى أن الواجب يقتضيه أن يتطوع فى الجيش الهولندى ويقوم بنصيبه فى حرب لاناقة له فيها ولا جمل ، ولكنه نظر إلى الحرب نظرته إلى نوع من أنواع الرياضة أو الصيد ، فظن أن من الخير أن يمارسه ، ولا شىء أكثر من هذا .

ولكن لايزال يساورنا شئ من القلق له ما يبرره ، وذلك عندما نسائل أنفسنا : كيف يتكلم فيلسوف كبير وحكيم عظيم كأرسطو عن طبقة من البشر يسميهم الأرقاء بمثل ما تكلم به ؟ لقد وجد الرق فى العالم منذ القدم ، ووجد فى أثينا على نحو حسبه الأثينيون جزءاً من نظام الطبيعة . ولهذا السبب يمكننا أن نقول إن أثينا لم تكن فى وقت من الأوقات ديمقراطية شعبية ، بل كانت أوليجاركية تتحكم فى طائفة ضخمة من العبيد الصامتين وتبتزهم .فلنذكر كذلك الفيلسوف الكاثوليكى العظيم توماس الأكوينى ، الذى عاش بعد أرسطو بما يربو على ستة عشر قرناً ، إذ كان يرى أن الرق نظام معقول ! نعم قد يبادر غير الكاثوليك بقولهم : وماذا عسى أن ينتظر من القديس توماس وهو

من رجال العصور الوسطى المظلمة ؟ حسنا . فلندع الآن القديس توماس والقرون الوسطى . لقد أتى بعد القرون الوسطى عصر النهضة ، وعصر الإصلاح والتنوير ، والثورتان الأمريكية والفرنسية . ثم أتى بعد هذه كلها — ومنذ أقل من قرن مضى — بعض رجال المسيحية الذين اعتقدوا أن استرقاق العبيد السود أمر تقضى به الطبيعة والعقل . أقول إن هذا حدث منذ أقل من قرن! فهل نلوم أرسطو لأنه لم يقدر وحشية أفعال لا يزال إثمها يحز فى ضمائرنا .؟

وليست آراء أرسطو فى التجارة بأقل سذاجة من آرائه فى الرق ، ولكن لسنا بحاجة إلى أن نذهب إلى الماضى البعيد لنرى أن بعض المثقفين من الناس كانوا يعتبرون ممارسة التجارة أمراً شائناً ضاراً بالسمعة ، وكانوا يزدرون التجار ويضعونهم فى منزلة غير منزلتهم . يقول أرسطو :

> أما وقد ذكرنا ما فيه الكفاية عن نظرية جمع الثروة فلنبحث الآن فى ناحيتها العملية . والنظر فى مثل هذه المسائل خليق بالفيلسوف . أما ممارستها بالفعل ففيها شئ من الضيق والمشقة[٢٧] .

لقد أشرنا من قبل إلى قصة لتاليس عن المضاربة المالية ، (ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ج ١) ولأرسطو قصة من النوع نفسه يرويها فى الموضوع ذاته حيث يقول :

> أودع مال عند رجل من صقلية فاشترى به جميع الحديد الذى أنتجته المناجم ؛ فلما أقبل التجار من أسواقهم المختلفة ليشتروا حديداً كان الصقلى وحده هو البائع له فربح فى ذلك ٢٠٠ ٪ على الرغم من أنه لم يزد من ثمن الحديد . فلما سمع ديونيسيوس[٢٨] سمح للصقلى أن يحتفظ بالمال على شريطة ألا يبقى بسيراكوز ، لأنه رأى أن الرجل قد كشف عن طريقة لجمع المال ضارة بمصلحته الذاتية . وبذا يكون قد اهتدى إلى ما اهتدى إليه تاليس ، لأن كلا منهما اتجه نحو احتكار الشيء لنفسه . وينبغى أن يعرف رجال الدولة مثل هذه الأمور ، لأن الدولة كثيراً ما تحتاج إلى المال وإلى معرفة الوسائل التى

يحصل بها المال كما يحتاج إليه أهل البيت بل أكثر . ولهذا يشغل بعض رجال الدولة جميع أوقاتهم فى النظر فى شئون المال خاصة[٢٩] » .

ومن الغريب أن أرسطو لا يكاد يشير إلى مسألة « قرض المال » على الرغم من كثرة مقرضى المال والصيارفة والممولين فى زمنه . وهو يذكر « الربا » من حيث هو وسيلة للحصول على المال، ولكنه لايعلق عليه بشيء[٣٠]. وقد شددت الديانات اليهودية والمسيحية فى معارضة قرض المال بربح على المقرض وكان نتيجة ذلك أن حرمه القديس توماس . ولكن مضت قرون طويلة قبل أن يوضع حد فاصل بين الربح المعتدل والربح الباهظ على المال المقترض أو بين التجارة المشروعة والربا بالمعنى الصحيح[٣١]. فمن الواضح أن أرسطو لم يكن عالماً اقتصادياً ولم يكن من طبيعته فهم المسائل الاقتصادية كما كان من طبيعته إدراك المشاكل الاجتماعية والسياسية . ولكن هذا يثير مشكلة غريبة ، إذ الحقائق الاقتصادية قديمة قدم الحياة الاجتماعية ذاتها ، فلماذا اقتضى إدماجهما معاً فى العلم والفلسفة وقتاً طويلا ؟

ومن البين أيضاً أن نظريات أرسطو فى السياسة لم تكن صحيحة ، ولكنها لم تكن خاطئة فى جوهرها كنظريات أفلاطون . ومن فضائل أرسطو ميله إلى التوفيق بين المتعارضات ، وهذا مما شفع له فى قصور نظرياته ، فإنها بعيدة عن الكمال ، ولكنها قابلة لأن يوصل بها إلى الكمال . لقد نظر فى جميع أنواع الحكومات التى جربت فى عصره وقبل عصره ، واستنتج أن الديمقراطية نظام مملوء بالمخاطرات ، فكان الحل الذى ارتضاه نظاماً يوفق فيه بين الأرستقراطية الأفلاطونية والنظام الإقطاعى المعتدل وبعض النظريات الديموقراطية ؛ وفى هذا النظام ضمن لكل مواطن فرصة المشاركة فى الحكم . وهو يرى أن طبقة العمال (الذين هم العبيد) يجب ألا يتولوا مناصب الحكم ، كما أن طبقة الحكام يجب ألا يزاولوا أعمال الحرف أو يكسبوا شيئاً من المال ؛ ويجب أن يتعهد الحكام بالتربية بالمعنى الصحيح الكامل ليصبحوا سادة الشعب ؛ ويجب ألا يكون الفلاسفة حكاماً بل تقصر مهمتهم على التعليم والإرشاد ، لأن الفلسفة أساس لا غنى عنه فى تكوين الرجل

الفاضل ، فالمدينة الأرسطية إذن ليست شيئاً أشبه « بالدير الحربى » كمدينة أفلاطون ، بل جمهورية معتدلة تستمد فضائلها من فضائل الأسرات . وقد أدرك أرسطو أنه لا وجود لحكومة كاملة كمالا مطلقاً، وأن كمال الحكومات كمال اعتبارى بالنسبة لأنواع الأمم وظروفها الخاصة .

وتظهر دقة الفهم عند أرسطو فى مناقشته للاشتراكية(٣٢). والاشتراكية فى نظره لاتفرض فرضاً على الأمة . ولكن الأمة تقبل عليها إقبالا طبيعياً عندما تتحول ميول الناس إلى تحقيق الخير العام ( الإحسان ). وما وصل إليه أرسطو من نتائج فى هذا الموضوع لايزال صادقاً حتى اليوم . فالمشاركة فى الخيرات المادية مبدأ جليل، ولكنا لسنا أهلا للأخذ به . وإنما يجب ألا نأخذ به إلا بطريق التدريج وبمقدار ما نتهيأ له ونستحقه .

هذا وقد كان ظهور كتاب السياسة لأرسطو قبل نهاية القرن الرابع ( قبل الميلاد ) حدثاً لايقل فى روعته عن ظهور ما أنتجه رجال ذلك العصر الذهبى من فنانين ورياضيين وعلماء . ولاأدل على عظم قيمته من أنه لم يؤلف كتاب يقاربه أو يقارنه حتى العصر الحديث . ولم يكن فى مؤلفات العصرين القديم والحديث ما يدانيه . بل إن الكتاب بعد أن ترجمه الدومينكى الفلمنكى ويلم الموربكى Willem of Moerbeke من اليونانية إلى اللاتينية نزولا على رغبة القديس توماس سنة ١٢٦٠ لم يحدث الأثر الذى كان متوقعاً أن يحدثه فى ذلك العصر . ولم يغير شيئاً من الجو السياسى الذى كان سائداً إذ ذاك . نعم إن القديس توماس قد استغله فى تكوين بعض أفكاره. وبينما احتفظ ببعض آراء أرسطو . أصلح من غير شك تعاليمه فى الناحية الديمقراطية (٣٣).

وبعد . فلا تزال السياسة النظرية التى صاغتها عبقرية أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد فى أول دور من أدوار نشأتها حتى اليوم. ولانزال نواجه المشاكل التى واجهها كل من أرسطو والقديس توماس . مع أن قليلا جداً من الناس من أدرك ضرورة الرجوع إليهما أو دفعه إلى ذلك رغبته الصادقة فى معرفة الحق والعدل.

**فن التأريخ** Historiography :

يقول ديودورس الصقلى فى مطلع كتابه « المكتبة التاريخية » الذى انتهى من تأليفه بمدينة روما سنة ٣٠ ق . م . ما يأتى :

> من واجب الناس جميعاً أن يدينوا بالشكر العظيم لأولئك المؤرخين الذين وضعوا للبشر تاريخاً عاماً[٣٤] ؛ لأنهم بمجهوداتهم الفردية قدموا خدمة كبرى للجنس البشرى برمته ، وكما أن العناية الإلهية ربطت بين الحركات المنتظمة للأفلاك وبين طبائع الناس برباط واحد عام ووجهت الكل منذ الأزل إلى الطريق الذى يسير فيه ، ومنحت الكل ما قدر له أن يكون ، كذلك المؤرخون : فإنهم بتسجيلهم الشئون العامة لسكان هذا العالم ، كما لو كانوا أهل مدينة واحدة ، قد جعلوا من كتاباتهم سجلا واحداً لأحداث الماضى ، ومرجعاً نهائياً تصفى فيه معرفتنا بهذه الأحداث . ولذا حق لنا القول بأن لمعرفتنا بالتاريخ أعظم نفع فى كل شأن من شئون الحياة ، لأنها تزود الشبان بحكمة الشيوخ ، وتمد الشيوخ بتجارب يضيفونها إلى تجاربهم ، وتهيئ المواطنين لمهام القيادة والزعامة ، وتلهم الزعماء القيام بأنبل الأعمال لما يخلعه التاريخ عليهم من صفات المجد الخالد .

من يا ترى أولئك الذين كان يفكر فيهم ديودورس؟ لقد كان على علم بما كتب هكاتايوس ، وهيرودوت وثوكيديديس وكسينوفون وغيرهم . ولكن إشارته إلى « التواريخ العامة » توحى بأنه كان يفكر أولا فى الجهود التاريخية العظيمة التى بدأت عصر أرسطو ، وبلغت ذروتها على يدى پوليبيوس ( فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد ) . نعم قد نعد هيرودوت مع سذاجته ورقة أسلوبه من مؤلفى « التواريخ العامة » ، ولكن أحداثاً كثيرة حدثت منذ عهده ، وانتهى من بعده عصر السذاجة فى كتابة التاريخ ، وأصبح مستحيلا على كتاب التاريخ أن يكتبوه على النسق الذى كتبه ، وظهرت البحوث التاريخية ذات

الموضوعات الخاصة ، كتلك التى كتبها ثوكيديديس ؛ ـ ولكن العلم اليونانى الذى عرفه هذان الرجلان العظيمان كان قد انتهى إلى غير رجعة . ولما اتحدت بلاد اليونان تمكنت من أن تقهر الدولة الفارسية ، ولكنها لما أنهكت الأحقاد القتالة قوتها ، أصبحت تحت رحمة جارتها الشمالية فانهزمت اليونان — أو بالأحرى — أثينا — وخلفتها مقدونية . أما من الناحية الروحية فقد دارت الحرب بين إيزوكراتيس وديموستنيس ، وانتصر ايزوكراتيس فى نهاية الشوط ، لأن فيليب انتصر ، ولم يكن انتصاره انتصاراً سياسياً وحسب ، بل كان فوزاً سياسيا وأدبياً . وفى الحق كان ايزوكراتيس الأثينى ( ٣٤٦—٢٤٨ ) أديباً كبيراً ، ساعد على صب اللغة اليونانية فى قالب الكمال ، كما كان سياسياً وخبيراً بالقانون وخطيباً ، بل أحد الخطباء العشرة فى أثينا ؛ ولم تعوزه العاطفة الوطنية وإن كان على رأس الجماعة التى تقول بسياسة التعاون ( مع مقدونية ) . وقد رأى ضرورة استتباب الأمن الداخلى لضمان سلامة اليونان ، ولكنه اعتقد أن الأمن الداخلى مستحيل بدون شىء من التدخل الأجنبى من جانب مقدونية ، ولم يدرك أن هذا التدخل سيقضى على استقلال اليونان وحريتها . وانتهى به الأمر إلى الانتحار ، بعد موقعة كارونيا سنة ٣٣٨ ، عندما أيقن أن أحلامه قد تبددت . وقد كان تأثيره ، فى الأدب اللاتينى عن طريق شيشرون ، عظيما ؛ وكان هذا التأثير فى الناحية الأدبية لا الفلسفية ، ولذا كان أقل فى مستواه من تأثير أرسطو . نعم لم يبق نفوذه إلا قليلا ، ولكنه فى ذلك الأمد القصير ، هيمن على الدراسات الإنسانية القديمة كلها . أما تعليم أرسطو فكان مقصورا على طلاب الفلسفة والعلوم الناضجين ، بينما ظهر تأثير ايزوكراتيس فى جميع الشبان الذين أحبوا لغتهم ورغبوا فى البراعة فيها بقدر ما يستطيعون . وإذا فقدت أمة حريتها تحول نظام التربية فيها نحو الخطابة ، ولذا كان ايزوكراتيس أخطب أهل زمانه .

كانت خطب ايزوكراتيس فى أغلب الأحيان تاريخية ، لأنه كان من الطبيعى أن يتغنى بعظمة اليونان ، وبعظمة أثينا خاصة ؛ وكان مدحه لأثينا منصباً على ماضيها لاعلى حاضرها . وكان له تلميذان مؤرخان أيضاً ، هما إفوروس

وثيوپمپوس ، بل كان أبرز المؤرخين فى عصرهما وقد اتفقا فى صفات كثيرة، واختلفا فى مزاجيهما اختلافاً كبيراً . يحكى لنا سويداس أن ايزوكراتيس كان يقول إن ثيوپمپوس كان يحتاج إلى من يكبح من جماحه، فى حين أن ايزوكراتيس كان يحتاج إلى من ينخسه. وقد قسا الزمان على هذين الرجلين فضاعت مؤلفاتهما، غير أنه يبدو مما بقى منها أنهما كانا أقل مرتبة من عظماء القرن السابق عليهما — هيرودوت وثوكيديديس — ومع ذلك يجب أن نحاول أن نعرف بعض الشئ عنهما، فإنهما فى الوقت الذى ظهر فيه الوعى القومى فى وطنهما، أبرزا فى صورة جديدة قيمة التاريخ العام الخارج عن حدود الوطن ، كما أوضحا أهمية العوامل الجغرافية فى الأحداث التاريخية .

**إفوروس الكيمى** Ephoros of Cyme[٣٥].

كانت «كيمى» ، التى ولد بها إفوروس حوالى سنة ٤٠٥ ق . م . أكبر المدن الأيولية بآسيا الصغرى، وكانت ذات شهرة هللينية قديمة[٣٦]؛ وغادرها إفوروس إلى أثينا لأن التعليم بها كان أفضل ، ولكى يتتلمذ لايزوكراتيس ويلقى الحظوة لديه . ولانعرف تاريخ وفاته بالدقة، ولكن الأرجح أنه مات فى حياة الإسكندر حوالى ٣٣٠ق . م . وقد كتب تاريخاً عاماً ابتداء من عودة هرقليداى والمستعمرات الدورية فى البيلوپونيز فى نهاية القرن الحادى عشر ( وقد اعتبر ذلك أول حادث تاريخى هام ) حتى ٣٤١ ق. م. ؛ وكتب ذلك التاريخ فى ثلاثين مجلداً، أكمل ابنه ديموفيلوس الجزء الأخير منها . أما غرضه من وضع الكتاب فيكشف عنه عنوانه وهو Historia coinon praxeon[٣٧] الذى يمكن أن نترجمه بتاريخ ( أو بحث ) الشئون العامة للإنسان » . وهو ما نسميه فى العصر الحديث « التاريخ المقارن » ؛ أى إن غايته كانت البحث فى شئون الإنسان وأحواله فى الأحوال الجغرافية والسياسية المختلفة . وقد وصلتنا شذرات من هذا الكتاب يبلغ عددها ستاً وثمانين ، كما وردت إشارات إليه فى مؤلفات المؤرخين

الذين أتوا من بعده ، مثل پوليبيوس وديودورس ، وسترابون ، وپلوتارك . قال عنه پوليبيوس : « إنه كان أول من كتب تاريخاً عاماً ، وإنه انفرد بذلك دون غيره[٣٨] » . ولكن هذا قول يجب ألا يؤخذ على ظاهره ، فإن ما كتبه إفوروس عن التاريخ العام كان محوره اليونان ، ولم يكن فى إمكانه غير هذا . بل إن مؤلفى التاريخ العام فى عصرنا هذا ، ممن تتوافر لديهم المصادر العديدة المتنوعة ، لا يستطيعون أن يتحرروا تمام التحرر من القيود التى تفرضها عليهم آراؤهم الوطنية .

وقد حاول إفوروس أن يتجنب الأساطير فى تاريخه ، وأن يعلل الحوادث تعليلا علمياً ، كأن يرجع الأعمال التى قامت بها الشعوب إلى ضرورة البيئة الجغرافية .

## ثيوپمپوس الخيوسى Theopompos of Chios

أما « ثيوپمپوس » فهو من المنطقة اليونانية التى منها إفوروس ، لأن من اليسير عبور البحر من جزيرة خيوس إلى خليج كيمى . ولد سنة ٣٨٠ ق.م. وبعد سنوات قلائل نفى أبوه داماسيستراتوس من الجزيرة لأسباب سياسية ، وهى فى الأرجح تشيعه لأهل «لاكونيا» .

تلقى ثيوپمپوس وهو طفل تعليمه فى أثينا ، وكان أحد تلامذة ايزوكراتيس وبعد حين أصبح خطيباً ممتازاً كأستاذه . وكان أول نجاح صادفه حصوله على جائزة الملكة أرتميسيا Artemisia على المرثية التى كتبها فى زوجها وأخيها موسولوس Mausolos . والمعروف أن موسولوس مات سنة ٣٥٣ ق. م . فلابد أن يكون ذلك قد حدث عقب موته مباشرة[٣٩] . رحل ثيوپمپوس كثيراً فى بلاد اليونان يحاضر الناس ويعلمهم ، ولقى الحظوة عند بعض الحكام مثل ملوك مقدونية . وقد رده الإسكندر الأكبر إلى خيوس ، ولكن بعد موت الإسكندر نفى ثيوپمپوس مرة أخرى من جزيرته ، فلجأ إلى إفيسوس ثم إلى مصر حيث استقبله بطلميوس الأول ( كان ملكاً من سنة ٣٩٣ — ٢٨٥ ) ، والأرجح أنه مات بها .

ومن بين مؤلفاته الضخمة ما كتبه تتمة لتاريخ ثوكيديديس ، من سنة ٤١٠ — ٣٩٨ ، والمجموعة الفيليبية the Philippica فى ثمانية وخمسين مجلداً ، وتاريخ اليونان من موقعة مانتنايا فى سنة ٣٦٢ ( حيث انتهى كسينوفون فى كتابه عن اليونان Hellenica ) حتى وفاة فيليب ٣٣٦ق.م . وقد ضاعت مؤلفات ثيوپمپوس ولكن بقى منها شذرات تبلغ ٣٨٣ قطعة ، معظمها مأخوذ من المجموعة الفيليبية ، كما نسب إليه نص طويل فى نحو ثلاثين صفحة ، عثر عليه فى بردية أوكسيرينخوس Oxyrhynchos سنة ١٩١١ . ويتفق ثيوپمپوس مع إفوروس فى بعض صفاتهما . ولا عجب فقد كانا زميلين فى مدرسة ايزوكراتيس ، كما كانا ثمرة لجيل واحد ، وهو جيل تحررت فيه العقول من الأوهام . وقد أدرك كلاهما قيمة العوامل الجغرافية ( فى تفسير حوادث التاريخ ) ، كما أدركا ضرورة الاتجاه بالتاريخ وجهة إنسانية . وبعد انتصارات فيليب ، وانتصارات الإسكندر بوجه خاص ، أصبح من المستحيل بقاء الحكومات المحلية اليونانية ، كما أصبح من المستحيل على قادة اليونان العقليين أن يقودوها دون أن يتطلعوا إلى ما وراء حدود بلادهم المحتضرة .

وأهم ما تمتاز به كتابات ثيوپمپوس من صفات تحليلاته السيكولوجية ، فهو يرى أن الحوادث التاريخية يمكن تفسيرها بالعوامل الجغرافية والسياسية ، ولكن العوامل الرئيسة فيها هى أفكار العظماء من الرجال .

كان ثيوپمپوس عالماً واسع الثقافة ، كما كان ناقداً بصيراً ، أو سياسياً قديراً ، وعالماً نفسياً ممتازاً ، ولكنه كان مغروراً إلى أقصى حدود الغرور . وقد سبق ( فى ميدان التاريخ السيكولوجى ) ساللوستيوس [٤٠] ( فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد ) ، بل تاكيتوس ( فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد ) ؛ ولم يستثن فى نقده الملك الذى كان عظيم الإعجاب به ، إذ وصف سلوك الملك فيليب أشنع وصف . ولكننا لاندرى أكان الباعث على ذلك الضغينة والحقد أم توخى الحق . ولاندرى أكان السبب هو الجنوح للشر فى التفكير ، أم نفاذ البصيرة ؟ ولكن لاجدال فى أنه كان رجلا مغروراً شديد

التهكم . وقد اتهم بموالاته لحكومة إسبرطة كما اتهم أبوه من قبل ، وهذا ليس ببعيد ، لأنه وجد مجال النقد فى أثينا أوسع منه فى إسبرطة وإن كانت إسبرطة لم تنج من لسانه . كان ساخراً متأهباً دائماً للتشهير بالشر أينما وجده . ولا نعتقد أن ذلك كان لجرأة فيه ، بقدر ما كان طبعاً ملازماً له ؛ وأغلب الظن أن قدرته على الخطابة ومواهبه الأدبية الأخرى كانت مما ضاعف من حقده وضغينته . فكثيراً ما يتفوه أمثاله من الناس بالأقوال المقذعة ، لأن العبارات الخلابة والأخيلة القوية العنيفة تستهويهم . وقد كشف جلبرت مرى عن كثير من أخلاق ثيوپمپوس وأشار إلى غروره بالعبارة اللبقة الآتية :

> لقد اشتدت حملة النقاد على سقطاته وأخطائه فى هذه الناحية ( ناحية غروره بنفسه ) . غير أنه يجب ألا يغيب عنا أن الكاتب الحديث اليوم فى غنى عن أن يمتدح نفسه ، وما عليه إلا أن يتفق مع ناشر كتابه على أن ينفق مبلغ كذا من المال فى الدعاية له ؛ فإذا ضمن لنفسه أن ذلك البوق العظيم الغالى الثمن سوف يتحدث بلسانه ، كتب مقدمة كتابه . وأعلن فيها عن تواضعه ما شاء أن يعلن . أما ثيوپمپوس فلم تتوافر لديه هذه المزايا [٤١] .

وقد ذكرنا أن إفوروس حاول أن يتحاشى الأساطير ( فى تاريخه ) . أما ثيوپمپوس فكان على العكس يحبها . وهو لم ينظر إليها نظرة مفكر عادى ، بل نظرة فيلسوف ، كما فعل أفلاطون . لقد كادت الفضيلة تختفى ، وجانب الناس الحق . فلعل الإنسان يجدهما فى الأساطير ، والأساطير هى الأمور التى لا تحدث أبداً ولكنها موجودة دائماً [٤٢] .

كان ثيوپمپوس ساخراً كما قلنا ، ولكنه لم يكن ساخراً بالمعنى الذى يفهم عادة من هذه الكلمة فحسب ، بل كان ساخراً فنياً ، ( وإلا فكل مفكر يسخر من عالمه المنحرف ومن أمته المنهارة ) . ولم يمتدح من الفلاسفة أحداً سوى أنتستنيس مؤسس المدرسة الكلبية Cynic School وكانت السخرية طبعاً فيه . وإلى حد ما موجهة نحو الخير ، كانت إعلاناً عن ثورة نفس حرة تغالب ظروفاً قاسية ؛

لقد أشرف العالم على الدمار ، وأصبح كل شئ فيه زائفاً سوى النفس الإنسانية . وربما لم يبلغ ثيوبمپوس مبلغ انتستنيس أو ديوجنيس الكلبي في السخرية والفظاظة ولكنه وقف على دقائق تعاليم الكلبيين وأعجب بها .

ولما خضع اليونان لحكم مقدونية في الأيام المظلمة التي قضوها تحت نيرها ، انقسم الناس في شعورهم إزاء هذا الحكم إلى طائفتين متطرفتين : طائفة الساخرين الشاكين وهؤلاء يمثلهم ثيوبمپوس ، وطائفة أصحاب الخرافات ، ومعظم هؤلاء — لا كلهم — من الجهلة غير المتعلمين - وليس من شك في أن السحرة والعرافين والمشعوذين والكهنة الذين أسند إليهم أمر المعابد والمغارات وعيون الماء المقدسة ، والكلمات المتلقاة من الآلهة ، كل أولئك درت عليهم أعمالهم ووظائفهم المال الوفير . وللناس في الصبر على الشقاء حد ، فإذا بلغ صبرهم أقصاه لجأوا إما إلى السخرية والتهكم وغير ذلك من ضروب الثورة النفسية . أو أذعنوا للقدر المحتوم ، فأذلوا عقولهم وما فيهم من فطنة وانتهكوا حرمة العقل

## مؤرخو العلم

النوعان السابقان من الشعور إزاء الحوادث هما النوعان المتقابلان ، ولكن يجب أن نفترض أن العقلاء من الناس لم يفقدوا صوابهم كما فقده غيرهم ، بل مضوا في أعمالهم في هدوء ، بقدر ما سمحت به ظروفهم . نعم لقد قاسوا كما قاسى غيرهم ، بل ربما كان ما قاسوه أشد وأعظم ، ولكنهم حاولوا أن يخفوا ذلك ونجحوا في محاولتهم . ولم يفعل ذلك عظماء الرجال من أمثال أرسطو وحدهم ، بل فعله من كانوا دونهم موهبة وقدرة على الابتكار والإبداع ، ولكن كانت لهم قدرة على الاحتمال وبعد النظر .

ومن بين هؤلاء الرجال الهادئين أود أن أضع في المقدمة مؤرخي العلوم الأوائل الذين يعدون بحق أسلافنا الروحانيين . وقد سبق أن ذكرنا ثلاثة منهم عاشوا جميعاً في زمن أرسطو : هم أوديموس من رودس ، وثيوفراستوس من إريسوس ( المؤلف في تاريخ الحساب والهندسة والفلك ) ، ومينون ( الذى كتب في

تقلب الطب ) وإن كان هذا دون الآخرين منزلة . كان مجهود هؤلاء العلماء فاتحة عهد جديد لسببين : الأول أنه دل على أن العلم بلغ من السعة والتعقيد مبلغاً جعل من الضرورى أن يكتب فى تاريخه ، ويتأمل فيه تأملا فلسفيا ، وذلك أن العلماء والأطباء فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانوا قد تجاوزوا مرحلة الملاحظة العلمية الأولية ، والتفسيرات العلمية الساذجة ، وأخذوا يتساءلون من أين أتينا ؟ أين كنا؟ كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه ؟ بل تساءلوا إلى أين المصير ؟

هذه أمور قد نفهمها الآن أكثر مما كانت تفهم فى عصر هادئ مثل منتصف العصر الفكتورى مثلا ، أما مسائل السياسة والاقتصاد ، فلا نزال نشعر فيها بخيبة الأمل التى شعر بها الأثينيون منذ ثلاثة وعشرين قرناً ، ولكنا فى الوقت نفسه أكثر منهم حيرة وانزعاجاً من أجل ما وصلنا إليه من تقدم عجيب فى ميادين العلم والصناعة .

أما السبب الثانى فهو أن مؤرخى العلوم هؤلاء كانوا مثلنا، يدافعون عن المعقول ضد غير المعقول ، وعن حرية الفكر ضد الخرافات والاستبعاد الروحى .

**الخطابة :**

لم يكن أرسطو أستاذاً فى العلوم والفلسفة وحدهما . بل كان أيضاً أستاذاً فى الدراسات الإنسانية، فقد ألف كتاباً أو كتابين فى الخطابة ، وكتاباً فى الشعر. ولكن من ذا الذى يريد اليوم أن يدرس الخطابة ، سوى بسطاء العقول ؟ بل لعل القارئ يسألنا : ماهى الخطابة ؟ لم يكن الناس بحاجة إلى أن يسألوا مثل هذا السؤال منذ خمسين سنة ، أما اليوم فقد كادت دراسة الخطابة تهمل إهمالا تاماً فى كلياتنا الجامعية (عدا كليات اللاهوت ) ؛ وهى إذا درست ، فإنما تدرس بطريقة عرضية . وتعرف الخطابة بأنها « فن الكلام المؤثر المطابق لمقتضى الحال».

وينقسم كتاب أرسطو فى الخطابة إلى ثلاثة أقسام لانرى ضرورة لتحليلها هنا ، لأن الموضوع – من حيث هو جزء من الدراسات الإنسانية – معقد غاية التعقيد ولكنا نورد الملاحظات القليلة الآتية :

يبحث الجزء الأكبر من المقالة الأولى فى تعريف الخطابة إجمالا . كما يبحث فى أنواعها ؛ فالرجل البليغ – أو الخطيب – يجب أن يحاول إيضاح فكرته ، ويحمل السامعين على الاعتقاد بصدق ما يقوله ، وبأنه خليق بأن يستمعوا إليه . وللخطابة ثلاثة أنواع هى : الخطابة السياسية ، والخطابة القضائية forensic والخطابة التعليمية (الأكاديمية) . أما الخطباء السياسيون فيجب أن يتعلموا كيف يناظرون خصومهم فى المسائل السياسية فى المجتمعات العامة ؛ والخطباء القضائيون – كرجال القانون – يترافعون أمام المحاكم ؛ وأما الخطباء الأكاديميون فكالأساتذة ، يناقشون فى شئون الحياة والأدب والفلسفه والفن ، مع طائفة من الزملاء أو التلامذة . وهكذا يتضح أن الأنواع الثلاثة للخطابة مختلفة متمايزة ، وأن كلاً منها يحتاج إلى مصطلح فنى خاص نجد له وصفاً عند أرسطو .

ولم تكن الحاجة (فى زمن أرسطو) ماسة إلى الإفاضة فى شرح الخطابة ومصطلحاتها ، فإن كل طالب فى « الليكيوم » بل كل أثينى مثقف ، كان ملماً بهذه المسائل من الناحية العملية ، ولم يحتج إلى أكثر من أن توضح له النقط الأمهات الرئيسة . والحقيقة أن الأثينيين كانوا يعلمون منذ حداثة سنهم كل صورة من صور الخطابة تقريباً ؛ ولذا كان إدخال أرسطو فن الخطابة فى نظام تعليمه أمراً غريباً ، ولكن لعله فعل ذلك لأن الخطابة كانت فناً خطيراً مهما كان علم الأثينيين بها . وبعض الأشياء قد يبلغ علمنا به مبلغاً كبيراً ، ولكنا نعيد النظر فيه فى ضوء جديد ومن وجهة نظر جديدة .

وتقتضى الخطابة وجود انفعالات وجدانية خاصة عند الخطيب وعند من يستمعون إليه ؛ فالخطابة صراع بين هذه الانفعالات ، ومهمة الخطيب أن يحاول أن يشكل بفنه عواطف الجمهور ويوجهها الوجهة التى يرى أنها أوفق وأصلح .

ولذا يحلل أرسطو فى المقالة الثانية من كتابه كثيراً من العواطف كالرزانة والغضب والمحبة والعداوة والخوف والثقة والاستحياء والوقاحة والشفقة والقسوة والرحمة والغيظ والحسد والتنافس، ويشرح العواطف التى يمتاز بها كل دور من أدوار الحياة ، وتلك التى تظهر مصاحبة لاستغلال المال والنفوذ ، والتى تظهر نتيجة للحرمان منهما . ولذا يصح أن توصف هذه المقالة بأنها رسالة صغيرة فى علم النفس العملى . وينبغى أن يكون الخطيب عالماً بأسرار النفس ، ولا يكفى أن يكون على علم بنفسه ، بل ينبغى أن يكون على علم بنفوس الناس وصفاتهم ومواطن الضعف فيهم ، لأن من وظيفته إقناعهم وكسبهم إلى جانبه .

وقد كان لهذا الجزء من كتاب الخطابة لأرسطو أثر بالغ فى تفكير رجال القرون الوسطى ، تشهد بذلك وفرة المؤلفات التى شرحوا فيها الانفعالات والعواطف الإنسانية من حيث صلتها بالخطابة أو صلتها بالأخلاق والوعظ الدينى .

ومن بين الاستطرادات الكثيرة التى تجدها فى المقالة الثانية من هذا الكتاب موضع يخصصه أرسطو لكيفية استعمال الأقوال المأثورة ( أو الأمثال ). وهو يرى أن الأقوال المأثورة خلاصة لتجارب الأمم وحكمة السلف ، ولذا ينبغى أن يعرف الخطيب كيف يستخدم هذه الأقوال وسيلة لدعم حجته ، وإذا كان للسامعين علم سابق بها يسروا له أمر تفهيمهم ما يريد الإدلاء به إليهم .

أما المقالة الثالثة فلعل أرسطو كتبها مستقلة عن المقالتين الأخريين ، ولكن نسبتها إليه صحيحة كنسبتهما . وهى تبحث بوجه خاص موضوع الأسلوب واللغة . ولكن كثيراً مما ورد فيها لايعنى القارئ الحديث إلا إذا أراد التعمق فى فهم اللغة اليونانية : كأن يعلم مثلا أن الخطباء الأقدمين . من اليونان كانوا أم من الرومان . اهتموا اهتماماً كبيراً بالخصائص الموسيقية للغة الخطابة كالنثر التوقيعى وأسلوب المثانى وما إلى ذلك .

والبحث فى اللغة الجيدة الموفية بغرضها من التعبير عن مقتضى الحال ، يتطلب النظر فى مسائل ندخلها عادة فى علمى النحو والصرف، ولكن الأجرومية

النظرية (على نحو ما توجد فى الكتب المدرسية اليوم )لم يكن لها وجود فى عصر أرسطو ، وهو العصر الذى كتب فيه معظم روائع الأدب اليونانى . وهذه ظاهرة ليس من السهل تعليلها . نعم عرفت فى ذلك العصر بعض قواعد الأجرومية التى نتعلمها اليوم على مضض فى مدارسنا ، ولكن أول كتاب وضع فى الأجرومية اليونانية كتب فى عصر متأخر ، كتبه كراتيس من أهل مالوس فى النصف الأول من القرن الثانى وهو مفقود. أما أقدم كتاب وصل إلينا عن الأجرومية اليونانية فهو كتاب ديونيسيوس تراكس ( فى النصف الثانى من القرن الثانى ) ويعتبر الواضع الحقيقى لعلم الأجرومية وعلم النحو خاصة أپوللونيوس ديسكولوس ( فى النصف الأول من القرن الثانى )وكانت له مكانة فى الإسكندرية بعد ذلك بوقت طويل . ومن الصعب تحديد زمن أپوللونيوس . ولكن إذا افترضنا أنه كان حياً فى منتصف حكم هادريان ( حوالى ١٢٧ بعد الميلاد ) كان ذلك بعد وفاة أرسطو بأربعة قرون ونصف[٤٣] .

ويشير أرسطو فى كتاب الخطابة إلى المؤلفين الآتية أسماؤهم مرتبين تنازلياً حسب عدد إشاراته إليهم وهم : هوميروس ، ويوريبيديس ، وسوفوكليس ، وأيزوكراتيس ، وأفلاطون ، وجورجياس ، وسقراط وثيودكتيس[٤٤] . وهو لا يذكر ديموستنيس إلا قليلا ، ولا يذكر ثيوكيديديس إطلاقا .

وليست مقالات كتاب الخطابة الثلاث منفصلة متميزة كما قد يفهم من العرض الموجز الذى قدمته ، بل هى مرتبة حيثما اتفق . وبعض المسائل فيها تثار وتبحث غير مرة. فموضوع « الأقوال المأثورة » مثلا يثار فى المقالة الثالثة ( بعد أن أثاره فى المقالة الثانية ) . وفى الإمكان أن نورد ملاحظات عدة على فقرات كثيرة من الكتاب ، ولكنا سنقتصر ملاحظاتنا على واحدة منها هى :

> إن أسلوب الخطابة التى تلقى على الجماهير يشبه على الحقيقية رسم منظر من المناظر . فإذا كثر عدد الجمهور بعد مرمى النظر ، وأصبحت العناية بصقل التفصيلات فى كلتا الحالتين غير مطلوبة ، بل أصبح من الأفضل تركها . أما أسلوب الخطابة

القضائية فينبغى أن يكون متقناً معقولا ، لاسيما إذا كان المتكلم يخاطب قاضياً واحداً ، حيث لا يتسع المجال للتزويق البلاغى ، لأن القاضى أقدر على فهم القضية المعروضة برمتها وعلى تقدير ما هو متصل بها وما هو خارج عنها ؛ وبذلك تقل حدة النزاع ( بينه وبين المتكلم ) ويصدر حكمه دون أن يقف فى سبيله عائق . هذا هو السر فى أن الخطيب لايتفق له أن يبرز جميع أنواع الخطابة . وأقل ماتكون الحاجة إلى الصقل الكثير فى الموقف الذى فيه تكون الحاجة إلى الإلقاء التمثيلى جد ماسة ، وهنا ينبغى أن يكون صوت الخطيب جيداً قوياً . وخطب المناسبات Ceremonial أدخل الخطب فى باب الأدب ، لأن المفروض أن يقرأها الناس . ويليها فى ذلك الخطب القضائية(٤٥) .

لاحظ المقالة الأولى التى يقارن فيها أرسطو أسلوب الخطابة الملقاة على جمهور كبير برسم صورة من الصور ! لقد كتب أرسطو هذا الكلام سنة ٣٢٢ ق . م . ، ومع ذلك لم يدرك مغزاه كثير من خطباء الجماهير فى سنة ١٩٥٢ ، أى بعد أرسطو باثنين وعشرين قرناً ، فإن المتحذلقين من الخطباء لايزالون يفضلون رسم الصورة الصغيرة حيث يجب أن يرسموا الصورة الكبيرة البارزة على الحوائط ، وبهذا يملون سامعيهم أشد الإملال . ولكن إملالهم السامعين قد لايكون بالأمر الخطير إذا قيس بإخفاقهم فى تأدية المهمة التى يريدون أن يؤدوها . ليتهم لايتكلمون ! لقد كان أرسطو خبيراً بما يقول !

أما كتاب الخطابة الثانى فهو أقصر من الأول ( ٥٤ عموداً فى طبعة بكر فى مقابل ٣٤ ) ، ويطلق عليه عادة اسم الخطابة إلى الإسكندر De rhetorica ad Alexandrum ، ويبدأ بالعبارة الآتية « من أرسطو إلى الإسكندر . . . تحية . . . » ثم يتلوها بإهداء للكتاب يقع فى أكثر من ثلاثة أعمدة ، ويشرح فيه المؤلف لماذا يجدر بالملك أن يكون على علم بالخطابة . وقد قال إراسموس إن هذا الإهداء مزور ، ولكن هذه دعوى غير مقنعة لأن للمقدمة طابعاً أرسطياً ؛ نعم ، قد تكون مملة إلى حدما ولكن يغلب عليها الوقار إذا قورنت

بمقدمات الكتب التى كتبها مؤلفو عصر النهضة ولم يخجلوا من أن يخاطبوا بها أولياءهم ، على ما فيها من معانى الذلة والخضوع والمداهنة . لقد طبعت هذه المقدمات بالفعل وكانت عاراً على المؤلفين ومن أهدوها إليهم على السواء .

على أن القول بالتزوير ليس مقصوراً على المقدمة وحدها . فقد ذهب بعض الكتاب إلى أن الكتاب كله منحول . ويميل بعض الباحثين إلى نسبته إلى أنا كسيمينيس اللامبساكى (حوالى ٣٨٠ — ٣٣٠ ق . م . ) . وكان معاصراً لأرسطو ، وكان مثله معلماً للإسكندر ؛ ولكن آخرين يجعلون تأليف الكتاب فى عصر متأخر نسبياً . وقد أثبت البحث وجود أجزاء منه فى ورقة البردى التى عثر عليها جرنفل وهنت[٤٦] فى هيبه Hibeh ونشراها سنة ١٩٠٦ . أما أن أرسطو هو الذى كتبه، وأنه كتبه للاسكندر فنفرض مقبول نظرى ، ولكن لا سبيل إلى إثباته . وإذا لم يكن أرسطو مؤلفه فالأرجح أنه كتب عقب وفاته بوقت قصير — أى قبل نهاية القرن (الرابع ).وليس فى هذا الكتاب كثير مما هو جديد إذا قورن بكتاب أرسطو المطول فى الخطابة .

### صناعة الشعر Poetics

كتاب الشعر الذى وصل إلينا كتاب صغير يقع فى أقل من ثلاثين عموداً ( فى طبعة بكر ) . وهو غير تام لم يصل إلينا منه سوى مقالة واحدة من مقالتين أو أكثر . ولاندرى أأرسطو لم يتمه أم أن الزمان قد أطاح بأجزائه الباقية ؟ والأرجح أن الاحتمال الأول هو الصحيح . لأن شدة العناية بالمحافظة على مخطوطات مثل هذا الكتاب كانت وحدها كفيلة بأن تحفظه . ولأن أرسطو كتبه — كما كتب الخطابة — فى أخريات حياته . وآخر كتب المؤلف عادة أكثر من غيرها تعرضاً لأن تبقى ناقصة .

والشعر فى نظر أرسطو شئ أهم بكثير مما نفهمه من هذه الكلمة فى اصطلاحنا الحديث : هو أدب الخيال إذا قوبل بالأدب العلمى ( أو الموضوعى )

يبدأ أرسطو الكتاب بالفقرة الآتية :

لما كان موضوع بحثنا هو الشعر فسأشرع فى الكلام . لا عن الفن إجمالا فحسب . بل عن أنواعه وعن الوظائف المختلفة لهذه الأنواع وعن بناء الحبكة المطلوبة لقصيدة جيدة . وعن عدد الأجزاء التى تتألف منها القصيدة ونوع هذه الأجزاء . وعن كل المسائل التى لها صلة بهذا الموضوع . ولنسلك الآن المنهج الطبيعى فنبدأ بالحقائق الأولية .

إن شعر الملحمة والمأساة والملهاة وشعر الدثرامب Dithyramb * ومعظم الزمر بالمزمار والضرب على القيثارة . كل أولئك فى جملته أساليب للمحاكاة . ولكن هذه الأساليب يختلف بعضها عن بعض من جهات ثلاث : إما باختلاف نوع وسائلها أو باختلاف موضوعاتها أو كيفية المحاكاة فيها (٤٧) .

( ويبحث النص الذى بين أيدينا فى المأساة «التراجيديا» وحدها . أما القسم الذى يبحث فى الملهاة « الكوميديا» والموسيقى فقد ضاع أو لم يكتب أصلا ) .

ويعرف أرسطو الشعر تعريفاً وافياً فى الفصل التاسع حيث يقول : يتضح مما ذكرنا أن وظيفة الشاعر هى أن يصف شيئاً يمكن أن يحدث . لا شيئاً حدث بالفعل ؛ أى أنه يصف الشئ المحتمل حدوثه من حيث هو كذلك . أو من حيث هو ضرورى . والفرق بين المؤرخ والشاعر ليس فى أن الأول يكتب نثراً والآخر يكتب نظماً ، فإنك تستطيع أن تنظم تاريخ هيرودوت ، ويظل نظمك مع ذلك نوعاً من التاريخ ؛ أما الفرق الحقيقى فهو أن التاريخ يصف الأمور التى حدثت . والشعر يصف ما يحتمل حدوثه . ومن ثم كان الشعر أدنى إلى الفلسفة ، وأعظم خطراً من التاريخ ، لأن قضاياه ذات طابع كلى ، فى حين أن قضايا التاريخ جزئية »(٤٨) .

ومقارنة أرسطو الشعر بالتاريخ لها دلالتها . ولكن الغريب فى الأمر أنه

* ترنيمة يونانية قديمة كانت ترتل للإله باخوس (المترجم)

يكثر من الإشارة إلى هيرودوت ، ولا يذكر ثوكيديديس أبداً ، مع أنه يتحدث فى كتاب السياسة عن الحرب البيلوبونيزية . فكيف يمكن أن يجهل الأثينيون ثوكيديديس بل كيف يمكن ألا يعرفه أرسطو ؟ وإذا كان قد قرأ كتابه فى التاريخ ، فلماذا أغفل الإشارة إليه إغفالا تاماً ؟ هذا أمر عجيب ! فإن أرسطو — وكان أقدر الناس على تقدير واقعية ثوكيديديس — قد أهمله هذا الإهمال الذى يشبه أن يكون عمداً . إن هذه الأمور محزنة حقاً ، ولكنها ليست غير عادية . وتاريخ العلوم حافل بأمثالها . وقد يحدث أن رجال العلم الذين يظهر أن بعضهم إلى بعض أقرب لايتلاقون ، بل قد تتقارب طرقهم إلى الحد الذى يؤذن بالتلاق ، ثم لايتحقق تلاق . والجزء المعروف عند أكثر الناس من كتاب الشعر هو الجزء الذى يشبه فيه أرسطو المأساة «التراجيديا» بالتطهير (catharsis) وهذا وارد فى تعريفه للمأساة حيث يقول :

> المأساة إذن هى محاكاة عمل جدى ؛ ومن حيث إن لها حجما فهى شئ تام فى ذاته . وهى تصاغ فى لغة مصحوبة بتوابع تبعث السرور ، يستعمل كل نوع منها فى خلال المأساة منفرداً .وتوضع (المأساة) فى صورة درامية لا قصصية ؛ وفيها أحداث تثير الإشفاق والخوف ، وعن طريقهما تحدث المأساة تأثيرها الخاص الذى هو تطهير النفس من مثل هذين الوجدانين . وأعنى بقولى « لغة مصحوبة بتوابع تبعث السرور » لغة مضافاً إليها الإيقاع والتوافق أو الغناء . وأعنى بقولى « يستعمل كل نوع منها منفرداً » أن بعضها يؤدى شعراً مجرداً وبعضها الآخر يؤدى غناء[٤٩] .

ويشير التعريف أيضاً إلى ما يصح أن نسميه « وحدة الفعل » ، لأنه ينص على أن المأساة يجب أن تكون تامة فى ذاتها . ثم يذكر أرسطو هذا المعنى بعد قليل فى عبارة أكثر تحديداً حيث يتحدث عن « وحدة القصة »[٥٠] . وهو يشير إلى « وحدة الزمن » إشارة عابرة[٥١] ، أما « وحدة المكان » . فلا يذكرها إطلاقا .

ويلاحظ أن « نظرية الوحدات الثلاث » التى أخذ بها كتاب العصر الكلاسيكى فى فرنسا ( كورنيى وراسين وبوايو ) واعتبروها أصلا من أصول الأدب ، ليست نظرية قديمة بل محدثة لأنها لم تظهر فى صورة واضحة حتى سنة ١٦٣٦ (Le Cid)(٥٢).

ومن السهل أن يعترض معترض بأن كتاب الشعر لأرسطو لا يعالج الشعر من حيث هو فن ملهم ، وأنه لا شاعر يرغب فى قراءته ، بل لو قرأه لما وجد فيه شيئاً من الإلهام . ونحن نجيب بأن كتاب الشعر لم يكتب للشعراء ، إنما كتب للنقاد والفلاسفة . ولم يكتب للعرافين والمتنبئين . وإنما كتب للعلماء . ولنا أن ننقده ، ولكن ليس لنا أن ننقده على أساس باطل .

**خاتمة :**

قد يرى بعض القراء أنه كان الأولى بنا ألا نتحدث عن كتابى الشعر والخطابة إلا فى أضيق الحدود ، لأنهما لايدخلان فى ميدان بحثنا الذى هو تاريخ العلم ، ولكن الذى حملنا على الكلام عنهما — بل اضطرنا إلى ذلك — هو رغبتنا فى أن نوضح النظرة الشاملة فى التفكير الأرسطى . فنحن إنما نتحدث فى كتابنا هذا عن العلم القديم لا الحديث ، فيجب أن ندرس العلم الأرسطى فى ضوء تصوره هو لا تصورنا . وقد كانت غايته تحايل المعرفة الإنسانية برمتها ووضعها فى صيغ علمية . والخطابة والشعر فى نظره أقرب شئ إلى العلوم ، وإن لم يعدهما من أصناف العلوم . لهذا كان لزاماً على رجل العلم أن يلم بهما . وإذا كان كذلك ، فالواجب أن يكون تحصيله لهما تحصيلا علمياً .

ويجدر برجل العلم أن يكون ملماً بالدراسات الإنسانية . وقد فعل أرسطو نقيض ما فعله أفلاطون ، فإن أفلاطون حول العلم والفلسفة والاجتماع إلى تصورات ميتافيزيقية خيالية ، وأخرج الشعراء والفنانين من مدينته (الفاضلة) . أما أرسطو

obeikandi.com

فقد حاول أن يدخل فى فلسفته المعرفة الإنسانية كلها ، بل الحياة برمتها ؛ واعترف بوجود الفن ، ولكنه حاول أن يفسره ويمزج العلم به ، فكان بهذا سابقاً على مؤرخى الفن ومؤرخى الشعر فى عصرنا الحاضر . وكثيراً مايعارض رجال الفن والشعر فى تحليل إنتاجهم تحليلا علمياً ، ولكنهم مخطئون مادام هذا التحليل لا يحمل ادعاء ، ولا يتعرض لتنظيم الإنتاج الفنى . بل يسلم بهذا الإنتاج تسليماً كما نسلم بوجود المخلوقات الطبيعية .

من هنا ندرك لماذا يمكن أن يصبح أرسطو — وقد أصبح بالفعل — عدواً لدوداً لأولئك الذين يكرهون العلم ولايثقون به ، وعدواً للناشئين من الشعراء والفنانين . ولماذا أصبح من ناحية أخرى معبود رجال العلم وكل محب للحقيقة الواقعية .

## هوامش الفصل الثانى والعشرون

(١) يلاحظ أن المعنين الأصليين لكلمتى Ecology ( علم أثر البيئة ) و Economy (علم الاقتصاد) مترادفان تقريباً، فمن العبث أن نتشبث برسم الأولى oecology ولا نرسم الثانية oeconomy . ونحن نستعمل الكلمتين "nomos" (القانون) و "Logos" (الكلمة أو العلم) غالباً على سبيل الترادف فى اصطلاحاتنا، فنسمى علم طبقات الأرض geology وعلم الفلك astronomy بينما نستعمل كلمة astorology ( علم أحكام النجوم) للدلالة على مجموعة من الخرافات ( متصلة بحركات الأفلاك) . وهكذا نجد فى كل لغة من اللغات ماهو معقول وما هو غير معقول .

(٢) كتاب تاريخ الحيوان Historia animalium لأرسطو ٥٤٧ ب – ٥٤٨ ا .

(٣) تكتب الكلمة فى اللغة اليونانية القديمة Pina أو Piné بحرف واحد ولكنا نكتبها Pinna جريا على استعمالها فى اللغة الإنجليزية . أما كلمتا Pinophylax Pinoteres فاتبعنا فى رسمهما أفضل الطرق فى اللغة اليونانية . راجع عن الأدب الشعبى المتصل بالبنا مجلة إيزيس : ٣٣ و ٥٦٩ ( سنة ١٩٤١ – ٤٢) .

(٤) يشير إلى اليربوع jerboa أو Dipus aegyptiacus

(٥) كتاب تاريخ الحيوان لأرسطو ٥٨٠ ب ١٠ .

(٦) Charles Elton, Voles, mice and lemmings. problems in population dynamics (Oxford : Clarendon Press, 1942) P.3 (Isis 35, 82(1944).

(٧) المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٨) أما محاورات أفلاطون فنوع آخر من أنواع الكتب .

(٩) ١٠٩٤ ا – ١٢٥١ ب من مؤلفات أرسطو .

(١٠) هناك وجوه شبه كثيرة بين « الأخلاق النيقوماخية » و « الأخلاق الأوديمية » ؛ فالفصول الرابع والخامس والسادس من الثانية تشبه الفصول الخامس والسادس والسابع من الأولى . وقد قيل إن هذه الفصول الثلاثة كانت فى أول الأمر أجزاء من « الأخلاق الأوديمية » ثم أدخلت ضمن الأخلاق النيقوماخية . نعم من المحتمل أن يكون مؤلف الكتابين شخصاً واحداً ، ولكن إذا فرضنا أن هذا الشخص هو أرسطو ، ألا يحق لنا أن نتساءل لماذا أعاد كتابة كتاب سبق أن ألفه ، وقد كان على ماكان عليه من كثرة المهام؟ أما « الأخلاق الكبرى » فهى من غير شك لمؤلف آخر كما يدل على ذلك اختلافها فى الأسلوب والمصطلحات ، فإن فيها ما لا يقل عن أربعين كلمة غير واردة فى الكتابين الآخرين .

(١١) تقع الأخلاق النيقوماخية فى ١٧٦ عمودا فى طبعة بكر بينما تقع الثلاثة الكتب الأخرى فى ١٤٤ عموداً . ( ٧٢ ، ٦٦ ، ٦ ) .

(١٢) الحق أن من الخطأ إطلاق هذا التعبير على أرسطو الذى وضع مركز التفكير فى القلب لا فى المخ . ولكنى استعملت هذا الاصطلاح لمجرد الإيضاح .

(١٣) ص ١٢٠٦ ب ١٩ .

(١٤) ص ١١٨٥ ب .

(١٥) ص ١٣٤٣ – ١٣٥٣ .

(١٦) يلاحظ أن نشرة بكر وترجمة أكسفورد لاتحويان إلا البابين الأولين ( ١٣٤٣ – ١٣٥٣ ) انظر المقالة الثالثة فى :

Franz Susemihl, Aristotelis quae feruntur Oeconomica (Leipzig, 1877).

(١٧) كتاب السياسة ١٢٩٠ ب – ١٢٩١ ب ١٣ .

(١٨) عثر على النص اليونانى لنظام الأثينيين سنة ١٨٩١ – كما أشرنا إلى ذلك من قبل – عثر عليه فردريك كينون Frederic G. Kenyon وترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى المجلد العاشر من مجموعة مؤلفات أرسطو المطبوعة فى أكسفورد ( ١٩٢٠ ). انظر كذلك نشرة سيرجون إدوين ساندز Sandys الطبعة الأولى فى لندن سنة ١٨٩٣ والثانية سنة ١٩١٢ . وكل النشرات والترجمات لهذا النص تنقسم إلى فصول من ١ – ٦٩ كما هو الحال فى ترجمة كنيون ، وهى لا تشير إلى الصفحات على نحو ما يفعل بكر لأن هذا الكتاب لم يدخل فى نشرة بكر لأرسطو.

(١٩) كان أول من نادى بالمساواة فى الملكية بين أفراد المدينة الواحدة . انظر كتاب السياسة ١٢٦٦ أ ٤٠ – ١٢٧٤ ب ٩ .

(٢٠) المرجع السابق ١٢٥٣ ا ٢ .

(٢١) من الطريف أن نقارن بين مايقوله أرسطو عن هذه الروابط الأساسية ، بل مايقوله بوجه عام فى نظرياته السياسية والاجتماعية ، فالأفكار الصينية على نحو ماقررها كونفوشيوس (القرن السادس قبل الميلاد) وموتى Mo Ti (القرن الخامس قبل الميلاد) ومنسيوس Mencius ( القرن الرابع قبل الميلاد) ولكن هذا قد يبعد بنا كثيراً عن غرضنا . وقد عاش منسيوس ما بين سنتى ٣٧٢ و ٢٨٩ وكان معاصراً لأرسطو وأصغر منه سنا .

(٢٢) رقمت المقالات ترقيماً مختلفاً فى المخطوطات والنشرات المختلفة. فالمقالات ٤ – ٨ رقمت أيضاً بالأرقام الآتية ٦ و ٨ و ٧ و ٤ و ٥ .

(٢٣) ١٣٠١ – ١٣١٦ .

(٢٤) السياسة ١٢٥٥ أ : ١ .

(٢٥) نفس المرجع ١٢٥٥ ا ٣١ . لا يستطيع الإنسان أن يزعم أن الأرقاء يختلفون اختلافاً جوهريا عن غيرهم من الناس بدليل أن كثيراً من الأرقاء قد برهنوا فى حياتهم على امتيازهم فى أخلاقهم وكرم نفوسهم وهذه ثغرة.( فى تفكير أرسطو) كغيرها من الثغرات . وللإنسان أن يقول إن هؤلاء الممتازين من الأرقاء ليسوا أرقاء على الحقيقة أو بطبيعتهم وإنما هم أحرار صاروا أرقاء بطريقة عرضية . وقد سلم أرسطو بأن الرقيق الذى له نفسية الحر يجب أن يطلق سراحه .

(٢٦) المرجع بعينه ١٢٥٦ ب ٢٠ انظر كذلك ١٢٥٥ ب ٣٩ و ١٣٣٣ ب ٣٨ .

(٢٧) المرجع ذاته ١٢٥٨ ب ٨ .

(٢٨) كان ديونيسيوس هذا طاغية سيراكوز وهو إما ديونيسيوس الأكبر – الأب (٤٣٠ – ٣٦٧) ، أو الأصغر – الابن – الذى خلف والده سنة ٣٦٧ ومات سنة ٣٤٣ فى ظروف غامضة . وقد قرب كل منهما أفلاطون إليه .

( ٢٩ ) كتاب السياسة ١٢٥٩ ا ٢٣ .

( ٣٠ ) المرجع ذاته ١٢٥٨ ب ٢٥.

( ٣١ ) راجع عن تاريخ الربا Encyclopaedia of Religion and Ethics
المجلد ١٢ ( سنة ١٩٢٢ ) ص ٥٤٨ – ٥٥٨ وكذلك كتاب نلسون فى معنى الربا إلخ :
N. Nelson, The idea of usury. From tribal to universal brotherhood,
مطبعة جامعة برنستون سنة ١٩٤٩ [ إيزيس ٤١ و٤٠٦ ( ١٩٥٠ ) ] .

( ٣٢ ) السياسة ١٢٦٣ .

( ٣٣ ) فقد قال إن الدولة وجدت لصالح الفرد ، لا الفرد لصالح الدولة . وكان هذا أحد المبادىء الأولى لحقوق الإنسان . انظر المقدمة جـ ٢ ص ٩١٥ .

( ٣٤ ) Tois tas coinas historias pragmateusa menois
انظر ترجمة أولدفاذر Oldfather فى مجموعة مكتبة لويب الكلاسيكية سنة ١٩٣٣ .

( ٣٥ ) انظر كتاب « إفوروس المؤرخ » تأليف جودفرى لويس باربر . كبردج سنة ١٩٣٥ [ ايزيس ٢٦ ، ١٥٧ – ١٥٨ ( ١٩٣٦ ) ].

( ٣٦ ) هاجر والد هيزيود من كيمى إلى بيوتيا Boeotia . وتواجه كيمى البحر مابين ليسبوس وخيوس واسمها التركى الحديث سندا كلى .

( ٣٧ ) قارن ذلك بفاتحة كتاب ديودورس التى اقتبسناها ، فى الهامش ٣٤ .

( ٣٨ ) التواريخ لپولبيوس ٥ : ٣٣ .

( ٣٩ ) سبق ذكر موسولوس . وكان ملكاً على كاريا من سنة ٣٧٧ – ٣٥٣ ق . م. وهى السنة التى مات فيها ، وكاد يحصل على الاستقلال التام عن الحكم الفارسى . وكان قصره وقبره المعروف بالموسوليوم فى هاليكارناسوس .

( ٤٠ ) يذكرنا سالوستيوس بثوكيديدس . ولكنا نغمط ثوكيديدس حقه إذا اعتبرنا ثيوپمپوس واضع علم التاريخ السيكولوجى كما ذكرنا من قبل ( انظر المقدمة : ا ١٤٧ ) لأن توكيديدس أحق بهذا الوصف .

( ٤١ ) ثلاث محاضرات ألقيت فى كبردج سنة ١٩٢٨ فى :
Paracharaxis or the restamping of covnentional coins
وقد أعيد طبعها فى كتاب Greek Studies فى أكسفورد سنة ١٩٤٦ ص ١٤٩ – ١٧٠ [إيزيس ٣٨ و٣ – ١١ ( ١٩٤٧ – ٤٨ ) ] .

( ٤٢ ) هكذا يعبر سالوستيوس فى كتابه عن الآلهة والعالم حيث يقول :

Tauta de egeneto men udepote esti de aei.

وقد كان سالوستيوس هذا على علم بمذهب الأفلاطونية الحديثة فى الصورة التى وضعها يمبليخوس ، ولعله كان صديقاً لجوليان المرتد ، بل لعله كتب كتابه بعد وفاة جوليان بوقت قريب (وقد توفى جوليان سنة ٣٦٣ ) ونشره نشرة خاصة . انظر ترجمته ونشرته الحديثة لآرثر داربى نوك Nock : كبردج سنة ١٩٢٦ ص ٨ .

( ٤٣ ) قد يعترض بأن بعض قواعد الأجرومية قد عرف قبل أرسطو ، وأن بروتاجوراس (القرن

الخامس قبل الميلاد ) قد وصف بأنه أول عالم نحوى . ولكن كانت الفترة طويلة جداً بين الوقت الذى فيه بدأ الشعور يتجه نحو الأجرومية ، والوقت الذى صيغت فيه أول صياغة علمية بسيطة ، فإن المدة بين بروتاجوراس و كراتيس زهاء قرنين ونصف قرن .

( ٤٤ ) كل هذه الأسماء معروفة عند القارئ عدا هذا الأخير . وأصل ثيودكتيس (ح ٣٧٥-٣٣٤ ) من فاسيليس ( لكيا ) ، عاش فى أثينا وتتلمذ لأفلاطون وإيزو كراتيس وأرسطو ، واشتهر بالخطابة والكتابة . وكان له نصب تذكارى فى فاسيليس زاره الإسكندر الأكبر تعظيماً لصاحبه .

( ٤٥ ) كتاب الخطابة ١٤١٤ ا ترجمة رص Ross المطبوعة بأكسفورد .

( ٤٦ ) الأول برنارد بين جرنفل B. Pyne Grenfell ( ١٨٦٩ – ١٩٢٦ ) والثانى آرثر سردج هنت A. Surridge Hunt ( ١٨٧١ – ١٩٣٤ ) وكلاهما من علماء البردى المعروفين .

( ٤٧ ) هذه الفقرة وغيرها من فقرات كتاب الشعر مأخوذة من كتاب انجرام بايووتر Ingram Bywater, Aristotle on the art of poetry, Greek and Engilsh Oxford, 1909

( ٤٨ ) الشعر لأرسطو ١٤٥١ آ خر ا .

( ٤٩ ) الشعر ١٤٤٩ ب .

( ٥٠ ) الشعر ١٤٥١ا ١٦ .

( ٥١ ) تحاول المأساة بقدر المستطاع أن تكون فى دائرة شمسية واحدة أو فى شىء قريب من هذا . الشعر ١٤٤٩ ب ١٣

( ٥٢ ) ظلت قاعدة الوحدات الثلاث معتبرة المثل الأعلى فى الدراما فى فرنسا إلى أن تحداها فيكتور هوجر تحديا عنيفا فى مقدمة كتابه عن كرمويل ( باريس . ديسمبر ١٨٢٧ ) وكان ذلك إيذاناً بظهور المدرسة الرومانتيكية .